﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

[النّحل: 81]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نِعمُ اللهِ على بني آدمَ مما يشاركونَ فيهِ سائرَ الحيواناتِ والهوامِّ

وبعدَ أنْ ذكرَ ما أنعمَ عليهم منْ نعمهِ الخاصَّةِ ببني الإنسانِ من السَّكنِ يومَ ظعنهِم ويومَ إقامتهِم، ذكرَ لهم هنا ما يشاركونَ فيهِ سائرَ الحيواناتِ من الأشجارِ ظلالًا، والجبالِ أكنانًا بما فيهِ سترهم، ثُمَّ أتْبَعَ ذلك ما هَداهم إليه، عِوَضًا مِمّا جَعَلَهُ لِسائرِ الحَيَوانِ، فذكر نِعمةَ السرابيل التي تقيهم الحر وبأس الحرب، وهذا مِنْ بديعِ اختيارِ الخالقِ المختارِ الّذي ميّزهُم عن الهوامِّ والوحشِ بالثّيابِ الواقيةِ، والسَّرابيلِ الحاميةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظِلَٰلًا﴾: أصلُ (ظلّ): أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيرِه، تَقولُ: أظَلَّتْنِي الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَلِيلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ويُعبّر بالظِّلِّ عن العِزَّة والمنعة، وعَن الرَّفاهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ﴾ [المرسلات: 41]، أي: في عِزَّة ومناع، والظُّلل: جمعُ ظُلَّةٍ، كغُرْفَةٍ وغُرَفٍ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثر ما يُقال فيما يُستوخم ويُكره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171][3]، والمقصودُ بالظِّلِّ في الآية: صورةُ الجسمِ المُنعَكِسِ إليهِ نورٌ؛ وهي آثارُ حَجْبِ الأجسامِ ضَوءَ الشَّمسِ مِنَ الوُقوعِ على الأرْضِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 226.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظلل).

2) ﴿أَكۡنَانًا﴾: أصلُ (كنّ): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على سَتْرٍ أوْ صَوْنٍ. يُقالُ: كَنَنْتُ الشَّيءَ في كِنِّه، إذا جَعَلْتَهُ فِيهِ وصُنْتَهُ، وأكْنَنْتُ الشَّيءَ: أخفَيْتُهُ، والكِنانَةُ: المَعروفَةُ، وهي القِياسُ[1]، الكِنُّ: ما يَرُدُّ الحَرَّ والبرْدَ مِنَ الأبنية والمَساكِنِ، وقَدْ كَنَنْتُه أكُنُّه كَنًّا، والجَمعُ أكنانٌ وأكِنَّةٌ[2]، وكَنَّ الشيءَ: سَتَرَهُ، قال تعالى: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [البقرة: 235]؛ أي أخفَيْتم، والأكِنَّةُ: الأغطِيَةُ؛ قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25][3]، والأكنانُ: جَمعُ كِنٍّ وهو فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ، أي: مكنونٍ فِيهِ، وهي الغِيرانُ والكُهوفُ، والمقصود بالأكنان في الآية: الغِيرانُ والكُهوفُ.

3) ﴿سَرَٰبِيلَ﴾: السِّرْبالُ: القَميصُ من أيِّ جِنْسٍ كانَ، يَقِي الجَسَدَ حَرَّ الشَّمسِ، كَما يَقِيهِ البَرْدَ، وقَدْ تَسَرْبَلَ بِهِ وسَرْبَلَه إيّاه، وسَرْبَلْتُه فتَسَرْبَل، أي: ألبسته السِّرْبالَ، وتُطْلَقُ السَّرابيلُ على الدُّروعِ، جَمعُها سِرْبال، والسَّرْبَلَة: الثَّرِيد الكَثِيرُ الدَّسَمِ[4]، والمقصود بالسَّرابيل في الآية نوعان: القمصانُ والثيابُ من القطن وغيره التي تدفع الحر والبرد، والقمصانُ الَّتي تقِي البأْسَ: وهِيَ دُروعُ الحَدِيدِ، ولها من أسماءِ القَمِيصِ: الدِّرْعُ، والسِّرْبالُ، والبَدَنُ[5].

4) ﴿تَقِيكُمُ﴾: أصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِهِ، أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ، أيْ: مِن دافِعٍ، والوِقايَةُ: ما يَقِي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ، أي اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اتَّقوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمرَةٍ"[6]، وكأنَّهُ أرادَ: اجْعَلوها وقايَةً بَيْنَكُم وبَيْنَها، وتأْتي الوِقايَةُ بِمعنى الحِفْظِ مِن الأذَى والضَّرَرِ[7]، والمقصود بالوِقايَةِ في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يؤذيه ويضرُّه.

5) ﴿بَأۡسَكُمۡ﴾: أصْلُ (بأس): أصْلٌ واحِدٌ، هو الشِّدَّةُ وما ضارَعَها[8]، والبأْسُ والبَئِسُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كنَّ).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كنن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كنن).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سربل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.
(6) رواه أحمد في مسنده، عن عدي بن حاتم ﷺ، رقم الحديث: (18253).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقى)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 340.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).

على مِثالِ فعِلٍ، العَذابُ الشَّديدُ، والبأْس أيضًا: الحَرْبُ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ لا بَأْسَ عليكَ، ولا بَأْسَ، أي: لا خَوْفَ، وإذا قالَ الرَّجُلُ لِعَدوِّهِ: لا بأْس عليكَ فقَدْ أمَّنه؛ لأنه نَفَى البأْس عَنْهُ[1]، ورَجُلٌ ذو بَأْسٍ وبَئِيسٌ، أي: شُجاعٌ، والمقصود بالبأْسِ في الآية: الشِّدَّةُ في الحَرْبِ.

6) ﴿تُسْلِمُونَ﴾: معظم باب (سلم): مِنَ الصِّحَّةِ والعافِيَةِ، فالسَّلامَةُ: أنْ يَسْلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، قالَ أهلُ العِلْمِ: اللّهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِهِ مِمّا يَلْحَقُ المَخْلوقِينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ، ومن الباب الإسلامُ: الانْقِيادُ؛ لأنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباءِ والامتِناعِ[2]، والإسْلامُ أيضًا: الاستِسلامُ لأمرِ اللّهِ والانقِيادُ لطاعَتِه، ويُقالُ فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قَولانِ: أحدهما: هو المُستَسلِمُ لأمر اللّه، والثّاني: هو المُخْلِصُ للّه العبادةَ، مِنْ قَولهم: سَلَّمَ الشَّيءَ لِفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشَّيءُ، أي: خَلَصَ لَهُ[3]، والمقصود بالإسلام في الآية: الانقِيادُ للّه تعالى بكلِّ وجه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَعْدادُ نِعَمِ الله تعالى السابغةِ على خَلْقِهِ من الظِّلالِ والجبالِ واللِّباسِ والدُّروع

ثمَّ ذكَر اللّه تعالى نعمةَ الظِّلالِ والجبالِ واللباسِ والدُّروع، فقال: واللّه جعَلَ لكم ما تَستَظِلّون به مِن الأشجارِ وغَيرِها، وجعَلَ لكم مِن الجبالِ مغاراتٍ وكُهوفًا تَلجَؤونَ إليها عندَ الحاجةِ، فهي تحميكم مِن الحَرِّ والبَردِ، والأمطارِ والأعداءِ، وجعَلَ لكم ثيابًا تَقيكم الحَرَّ والبَرْدَ، وجعَلَ لكم مِن الحديدِ دروعًا وغيرَها تقيكم الطَّعنَ في حُروبكم وتدفَعُ عنكم ضَرَرَ السِّلاحِ، كما أنعَمَ اللّهُ عليكم بهذه النِّعَمِ الوافرة يُتِمُّ نِعمَتَه عليكم؛ لتَخضعوا لأمرِ اللّهِ وحْدَه، ولا تُشرِكوا به شَيئًا في عبادتِه[4].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بأس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 321، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 591، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 221، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/ 420.

وفي الآيةِ دليلٌ على اتخاذ الناسِ عدَّةَ الجهاد ليستعينوا بها على قتالِ الأعداء، وقد لبسها النبيُّ ﷺ في حروبه، وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ كثرة النِّعم من الأسباب الجالبةِ من العباد مزيدَ الشكر، والثناءِ بها على اللّه تعالى، لكن من لا يوفَّق إلى هذه الخَصلة لا يزدادُ إلّا تمرُّدًا وعنادًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ جملةِ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ﴾:

وعطفَ جملةَ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ وما بعدَها على ما قبلَها في امتدادٍ لنعمهِ تعالى منْ جعلِ البيوتِ القارّةِ والمتحوّلةِ في أحوالِ الإقامةِ والانتقالِ، فبيّنَ هنا إلهامَهُم إلى التّوقّي منْ أضرارِ الحرِّ والقرّ حالَ التّحوّلِ[2]، وكلّ ذلكَ امتنانًا منهُ سبحانهُ على ما وهبهُم.

امتدادُ امتنانه تعالى بنعمةِ الإلهامِ إلى التّوقّي من الحرّ والقرّ

وأقسامُ الإنسانِ باعتبارِ إقامتهِ وسفرهِ على ضربينِ؛ مقيمٌ ومسافرٌ، والمسافرُ إمّا أنْ يكونَ غنيًّا مكتفيًا، وإمّا ضعيفًا مفتقرًا فهذهِ ثلاثةُ أنواعٍ، وعطفَ هذا النوعَ الثّالثَ على النّوعينِ الأولينِ؛ فالمسافرُ إذا لم يجدْ ما يحميهِ ويؤويهِ منْ خيمةٍ أوْ قبّةٍ أوْ نحوها لافتقارهِ؛ فإنّهُ يستظلُّ بشيءٍ آخرَ كالجدرانِ والأشجارِ والغمامِ[3].

استظلالُ المسافرِ بما يستظلُّ به كالجدرانِ والأشجارِ والغمامِ

وعطفَ هذهِ الآيةَ على ما سبقَها؛ لاشتمالِ هذهِ الآيةِ على منّتينِ امتنَّ الحقُّ سبحانهُ بهما على خلقهِ في اللّباسِ الّذي يحميهِم من الحرِّ والبردِ بعد أنَ امتنّ اللّهُ عليهم بمنّةِ جعلهِ المساكنَ لهم، فتقدّمت منّةُ المساكنِ، ثمَّ عطفَ عليها منّةَ اللّباسِ[4].

ما تقدّمَ امتنانُ جعلهِ المساكنَ وعطفَ عليهِ منّةَ جعلهِ اللّباسَ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 160، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 239.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 253، والخازن، لباب التأويل: 3/ 92.
(4) الزركشي، البرهان: 3/ 119.

نكتةُ الذِّكر في قولهِ: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

تعظيمًا لهُ سبحانهُ وتعديدًا لنعمهِ وظهورِ قدرِها وعلوّ أمرِها

ولّما ذكرَ الاسمَ الجليلَ مُظْهَرًا في الآيةِ السّابقةِ كانَ القياسُ أنْ يأتيَ بهِ هنا مضمرًا، لكنّهُ عدلَ عنهُ فوضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ﴾؛ لإرادةِ تعديدِ نعمهِ تعالى، وإظهارِ قدرِها وعلوّ أمرِها، ومنْ أجلِ تعظيمهِ سبحانهُ ذي الجلالِ والإكرامِ[1].

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ:

تأكيدُ جعلِ هذهِ النّعمِ لهُ تعالى ونفيُها عن غيرِه

وقدّمَ المسندَ إليه الاسمَ الكريمَ ﴿وَٱللَّهُ﴾ على المسندِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾؛ لغرضِ تقويةِ إسنادِ الخبرِ إليهِ[2]؛ فلا يَتوهّمَ متوهِّمٌ أنَّ جعلَ مثلِ هذهِ النّعمِ منْ غيرهِ سبحانهُ.

دلالتا تكرارِ ﴿جَعَلَ﴾، وكونه ماضيًا:

تحقّقُ النّعمِ العظيمةِ في معرضِ الامتنانِ

وكرّرَ الفعلَ ﴿جَعَلَ﴾ في هذهِ الآيةِ وما قبلَها؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الامتنانِ عليهم بالنّعمِ العظيمةِ، واستقلالُ الجعلِ في كلِّ نعمةٍ منْ لدن جعلِ بيوتهم سكنًا، وهيَ نعمٌ واقعةٌ حقًّا بدلالةِ التّعبيرِ بالماضي حتّى اشترطَ عليهم أنْ يسلموا؛ فيهبهُم من النّعمِ الأخرى حتّى يتمّها في المستقبلِ.

وجهُ تكرارِ الجارّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾:

امتنّ عليكُم واختصَّ بكُم هذهِ النِّعمَ دونَ سائرِ الحيوانِ

وأعادَ ذكرَ الجارّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ منًّا منهُ سبحانهُ عليكُم بأن اختصّ بكم هذهِ النِّعمَ دونَ سائرِ المخلوقاتِ الأخرى كالحيوانِ[3].

معنى (مِن) في قولهِ: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾:

تبعيضيةٌ؛ إذ من خلقه الكهوفُ التي يأوونَ والأشجارُ التي يستظلّونَ

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ (مِنْ) في ﴿مِّمَّا﴾ دالّةٌ على التّبعيضِ، أيْ: أنّهُ جعلَ لكُم منْ بعضِ ما خلقَ

(1) العلوي، الطراز: 3/ 150، والبقاعي، نظم الدّرر: 11/ 226.
(2) العلوي، الطراز: 3/ 149.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 226.

ظلالًا تحميكُم، وهيَ الكهوفُ الّتي يأوونَ إليها عندَ اشتدادِ الحرِّ[1]، أو الأشجارُ الّتي يستظلّون بها.

معنى (ما) في الآيةِ، وأثرُها:

خلقَ الله أنواعَ الظّلالِ من أشياءَ كثيرةٍ عامّةٍ بقدرتهِ وعظمتهِ

و(ما) في قولهِ: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ دالةٌ على العمومِ؛ فهي موصولةٌ مشتركةُ الدِّلالةِ "مبهمةٌ تقعُ على كلِّ شيءٍ"[2]، ولجواز أن تكون مصدريّة إشارة إلى امتنان الخالق ﷻ عليهم بخَلْقه تلك الظلال من غير صنع منكم؛ فمعناها جميعُ ما كانَ من شجرٍ وسائرِ المستظلّاتِ الأخرى[3]، أي أنّه تعالى خلقَ لكُم أنواعَ الظّلالِ من أشياءَ كثيرةٍ عامّةٍ دلّت عليها (ما) ولم يذكرْ أيَّ شيءٍ معيّنٍ لتعددِ الأنواعِ[4]، وكلّه بقدرتهِ وعظمتهِ الّتي لا يحدُّها شيءٌ.

إيثارُ التعبيرِ بالفعلِ ﴿خَلَقَ﴾:

جميعُ ما جعلَ اللهُ لهم إنّما هيَ مخلوقةٌ صورةً ومادةً وهيئةً

ولمّا كرّرَ فِعلَ الجعلِ غيرَ مرةٍ ذكرَ هنا فعلَ الخلقِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾؛ لأنَّ تلكَ الأشياءَ إذا وصفت بأنّها مجعولةٌ له سبحانهُ، فإنّ خلقَها له تعالى على الجملةِ من جهةِ الصّورةِ والمادّةِ والهيئةِ[5]؛ فقدْ يتوهّمُ أنَّ الجعلَ منْ صفاتِ البشرِ، وأنّ البيوتَ ونحوَها إنّما صارتْ بيوتًا بما صنعَ بنو آدمَ.

الانتفاعُ بأنواعِ الظّلالِ مكافئٌ للنّورِ وليسَ بأقلّ منهُ

ولم يكتفِ بفعلِ الجعلِ كعادتهِ في الآياتِ السّابقةِ، بلْ زادَ عليهِ فعلَ الخلقِ، وفي تعليقِ الظّلالِ بفعلِ الخلقِ "لكونها أمرًا عدميًا محقّقًا يتبعُ غيرهُ، وهيَ معَ ذلكَ من النّعمِ العظيمةِ الّتي أنعمَ اللّهُ بها على الإنسانِ وسائرِ الحيوانِ"[6] فالانتفاعُ بأنواعِ الظّلالِ كظلالِ الأشجارِ والأبنيةِ والكهوفِ وظلِّ الليلِ مكافئٌ للنّورِ، وليسَ بأقلّ منهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 228.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 174.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4236.
(5) ابن قيم الجوزية، بدائع التّفسير: 2/ 117، والثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 40.
(6) الطباطبائي، الميزان: 14/ 314.

سرُّ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿ظِلَٰلًا﴾:

شمولُ جميعِ أنواعِ الظّلالِ كظلالِ الغمامِ والبيوتِ والشّجرِ والجبالِ وغيرِه

وعبّرَ عن الظّلالِ بصيغةِ الجمعِ والتّنكيرِ ﴿ظِلَٰلًا﴾؛ لأنَّ معنى الظّلالِ يحتملُ أنْ يكونَ ظلالَ الغمامِ، ويحتملُ أنْ يكونَ ظلالَ البيوتِ، أوْ ظلالَ الشّجرِ، أوْ ظلالَ الجبالِ، ويحتملُ كلّ ما لهُ ظلّ منْ حائطٍ وسقفٍ ونحوهما[1]، فمعناهُ عامّ غيرُ معيّنٍ كالنّكرةِ في شمولِها وعدمِ دلالتِها على التّعيينِ.

دلالةُ عطفِ جملةِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾:

مناسبةُ الإثباعِ بما يحميهِم من البردِ والمطرِ

ولمّا ذكرَ ما أنعمَ عليهِم من الظّلالِ الّتي يستترونَ بها من الحرّ "وأنّها الأشياءُ المباشرةُ لهم؛ لأنّ بلادهُم من الحرارةِ وقهرِ الشّمسِ، بحيث للظّلّ غناءٌ عظيمٌ ونفعٌ ظاهرٌ"[2] بقولهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾، عطفَ عليه مماثلهُ ممّا يحميهِم من البردِ والمطرِ والرّيحِ بقولهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وهي الغيرانُ في الجبالِ ونحوها.

نكتةُ التّعبيرِ بالأكنانِ:

الأكنانُ مواضعُ للاستتارِ منْ عدوٍّ أو مطرٍ أوْ نحوهِ، وليست بيوتًا للسّكنِ

وعبّرَ بالأكنانِ في قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، ولم يعبّرْ بغيرِها كالبيوتِ؛ لأنّها كانت أماكنَ للاستتارِ من الأعداءِ أو الأمطارِ أو اتّقاءِ حرارةِ الهجيرِ، ولم تُتَّخَذْ بيوتًا للسّكنِ المطمئنِ؛ حيثُ تسكنُ نفوسُهم، ويشعرونَ بالأمانِ بعدَ التّعبِ[3] كما هوَ حالُ البيوتِ المتّخذةِ للسّكنى، فوصفُ الأكنانِ أليقُ بها وأنسبُ.

دلالةُ التّنكيرِ في ﴿أَكْنَٰنًا﴾:

كلّ شيءٍ وقاكَ وسترَكَ وحماكَ فهو من الأكنانِ

وأوردَ مفردةَ الأكنانِ نكرةً؛ لدلالتِها على العمومِ والشّيوعِ كما هوَ الحالُ في النّكرةِ في لسانِ العربِ؛ فإنَّ هذهِ الأكنانَ عامَّةٌ ليستْ محدّدةً، بلْ هيَ كلُّ ما يسترُ الإنسانَ من الحرِّ أو البردِ أو المطرِ أو

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 576.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 412.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4237.

العدوِّ أو الوحشِ، فكلُّ شيءٍ وقاكَ وستركَ وحماكَ فهوَ كنٌّ[1]، وجمعهُ أكنانٌ؛ فهو عامّ غيرُ متعيّنٍ.

بلاغةُ تقديمِ ظلالِ الأشجارِ:

الاستظلالُ بالأشجارِ أكثرُ من الاحتماء بأكنانِ الجبالِ

وتقدّمَ قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ على قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ من بابِ تقديمِ الأكثرِ على الأقلّ؛ فإنّ الظّلالَ من كثرةِ الأشجارِ وانتشارِها وعمومِها للمخاطبينَ، والجبالُ منحسرةٌ في أماكنَ معينةٍ، وأنّها لا تشملُ البشرَ جميعًا، وأنّه جعلَ لهم من السّهولِ ما هو أكثرُ من الجبالِ وأعظمُ[2]؛ فثبتَ أنّ استظلالهُم بالأشجارِ أكبرُ من أكنانِ الجبالِ، وإن كانَ الاثنانِ من نعمهِ تعالى.

بلاغةُ الاكتفاءِ في الآية:

الكنّ السّترُ وهو ما يحمي من الحرّ والبردِ فيشملُ الجبالَ والسّهولَ

وفي قولهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ إيجازٌ بالحذفِ من بابِ الاكتفاءِ[3]؛ فإنَّ التّقديرَ أنّه تعالى جعلَ من الجبالِ والسّهولِ أكنانًا[4]؛ فإنَّ الأكنانَ ما يحمي من الحرِّ والبردِ من الأبنيةِ والمساكنِ والغيرانِ؛ فإنَّ معنى كننتُ الشّيءَ: سترتهُ وصنتهُ[5]، وإنْ كانَ قدْ شاعَ إطلاقهُ على الغارِ في الجبلِ، إلّا أنَّ معناهُ المحوريّ يدلُّ على السّترِ مطلقًا.

تقدّمَ ذكرُ السّهلِ في جعلهِ البيوتَ سكنًا فأغنى عن ذكرهِ

واكتفى بذكرِ الجبالِ في الجملةِ دونَ ذكرِ السّهلِ؛ لأنّهُ تقدّمَ ما يدلُّ على السّهلِ في الآيةِ السّابقةِ منْ قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾[6].

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 576.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 271، 269.
(3) "أنْ يقتضيَ المقامُ ذكرَ شيئينِ بينهما تلازمٌ وارتباطٌ فيكتفَى بأحدهما عنِ الآخرِ" الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 118.
(4) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص: 352.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/ 1927.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 206.

ذكرَ لهم ما هوَ معهودٌ لديهم إذْ كانوا أصحابَ جبالٍ

ولَمّا كانَ العربُ المخاطبونَ بالقرآنِ أصحابَ جبالٍ في الجملة، ولم يكونوا أصحابَ سهولٍ[1] اكتفى بذكرِ الجبالِ بقولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾؛ فذكرَ لهم ما هو معهودٌ لديهم.

معنى إعادةِ الفعلِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾:

تكريرُ الفعلِ فيه تذكيرُهُم بنعمهِ تعالى وامتنانِه عليهم

وكرّرَ الفعلَ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾؛ لأنّه في سياقِ الإنعامِ عليهم، وهذهِ نعمةٌ أخرى جديدةٌ[2]، وهي نعمةُ الملبسِ بعدَ نعمةِ المسكنِ؛ ففي تكريرِ الفعلِ تذكيرُهُم بنعمهِ وامتنانِه عليهم.

الأثرُ الدّلاليّ في عطفِ قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾:

لَمّا ذكرَ تعالى أمرَ المسكنِ ذكرَ بعدَهُ أمرَ الملبوسِ وذلكَ من تمامِ النّعمةِ

ولَمّا ذكرَ الحقّ تعالى أمرَ المسكنِ عطفَ عليهِ أمرَ الملبوسِ[3] في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾؛ لأنَّ ما قبلهَ جارٍ في سياقِ المسكنِ الحامي لهم منْ حرارةِ الشّمسِ بأنواعِ الظّلالِ، والحامي لهم من البردِ والمطرِ والرّيحِ بأكنانِ الجبالِ؛ لتكونَ منّتُهُ بالسّرابيل منْ تمامِ إنعامِه عليهم لعلّهم يؤمنونَ.

إيثارُ استعمالِ لفظِ ﴿سَرَٰبِيلَ﴾:

المقامُ مقامُ إنعامٍ فهو جديرٌ بالمبالغةِ والتّعظيمِ في الوصفِ

وقولُهُ ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ بصيغةِ منتهى الجموعِ[4]، وهو من جموعِ الكثرةِ، فقد ذكرَ هذهِ الكلمةَ في مقامِ الإنعامِ، وكرّرها لأنَّ المقامَ جديرٌ بالمبالغةِ والتّعظيمِ.

أثرُ موقعِ جملةِ ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾:

السّرابيلُ تقي البشرَ من الحرّ والبردِ والحربِ

ووقعتْ جملةُ ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ عقبَ قولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ على أنّها صفةٌ موضحةٌ للفظةِ سرابيلَ[5]؛ فإنّهُ جعلَ السّرابيل وهيَ الثيابُ من

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 160.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 351.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 253.
(4) كل جمع بعد ألف تكسيره حرفان مثل مساجد أو ثلاثة أحرف أوسطها ساكن مثل مصابيح وقيل إنَّه لا جمع بعده، خالد الأزهري، شرح الأزهرية، ص: 15.
(5) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 348.

القطنِ والكَتّانِ ونحوها منْ أجلِ فائدةٍ لبني البشرِ أنعمَها عليهم، وهيَ وقايتُهم من الحرِّ والبردِ والحربِ.

سرُّ استعمال الفعل ﴿تَقِيكُمُ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ جاءَ بفعلِ الوقايةِ الدّالِّ على دفعِ شيءٍ بشيءٍ معَ الحذرِ من شيءٍ مكروهٍ مضرٍّ طلبًا للنّجاةِ منهُ[1]، وهوَ المرادُ من الوقايتينِ في الآيةِ؛ دفعُ الحرِّ والبردِ، ودفعُ أذى الحربِ من سيفٍ ورمحٍ ودَبّوسٍ ونحوهِ، فوقايتهم بالسَّرابيل امتنان عليهم، وإظهار لضعفهم وعَوَز أبدانهم إلى ما يقيها من الحرّ والقرّ ونحوهما.

دلالةُ الوقاية تتناسب مع سياق الآية في دَفع شيء ضارٍّ بشيء آخر

وقد آثر الخطابُ القرآني استعمالَ لفظ الوقاية على لفظ المنع؛ لأن المنعَ هوَ "ما لأجلهِ يتعذّرُ الفعلُ على القادرِ، فهوَ يضادُّ الفعلَ، وليسَ يضادُّ القدرةَ، بلْ ليسَ يسمّى منعًا إلّا إذا كانَ معَ القدرةِ، فليسَ هوَ من العجزِ في شيءٍ"[2]؛ فالوقايةُ أنسبُ للسّياق.

أثرُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ:

وفي قولهِ تعالى: ﴿تَقِيكُمُ﴾ وصفَ الوقاية من الحرِّ ومنْ أذى المعركةِ بصيغةِ المضارعِ الدّالةِ على التَّجدّدِ، فالقصدُ أنَّ هذهِ النّعمةَ الّتي أنعمَها اللّهُ عليهم متجدّدةٌ، وأنَّ حكمَها جارٍ في كلِّ زمانٍ، وأنّها موجودةٌ ما وُجدَ الحرُّ ووُجدت الحربُ.

وقايتهم من الحرِّ ومن الحربِ متجدّدةٌ جاريةٌ في كلِّ زمانٍ

بلاغةُ الاكتفاءِ في قولهِ: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾:

وفي وصفِ السّرابيلِ وهيَ القمصانُ الّتي تقي الإنسانَ منْ حرّ الصّيفِ ولَفْحِه، وبردِ الشّتاءِ وسَمومهِ قالَ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، ولم يقلْ: (الحرّ والبرد)؛ على إرادةِ الحرِّ والبردِ معًا مكتفيًا بذكرِ

انفهامُ البردِ المحذوفِ من السياق المذكورِ

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقى).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 352.

أحدِهما لانفهامِ دلالةِ المحذوفِ منْ لفظِ المذكورِ[1]؛ فإنَّ ما يقي من الحرّ يقي من البردِ ضرورةً.

مناسبة لغالبِ أحوالِ المخاطبينَ في بلادِ العربِ الحارّةِ

وعندَما ذكرَ السّرابيلِ وهيَ منْ جملةِ إنعامِهِ سبحانهُ على خلقِهِ وصفَها بأنّها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، مكتفيًا بهذا الوصفِ، معرضًا عنْ قرينِهِ وهوَ الوقايةُ من البردِ؛ لأنَّ أكثرَ أحوالِ المخاطبينَ بالقرآنِ وقتَ نزولِهِ[2] هم العربُ، وهم في بلادٍ مشتهرةٍ بالحرِّ؛ فتناسبَ الوصفُ معَ حالِهم، فإنّهم قلّما يهمّهم البردُ؛ فإنّه يسيرٌ محتملٌ عندَهم.

وقايةُ البَرْد من أصول النِّعم

لم يذكر اللّهُ البردَ لأنّه قد تقدَّم أنَّ هذه السورةَ أولُها في أصول النِّعَم، وآخرُها في مكملاتها ومتمماتها، ووقايةُ البردِ من أصول النِّعم – فإنه من الضرورة – وقد ذكره في أولِها في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: 5][3].

تحذيرًا من حرّ جهنّمَ وتوقّيًا منهُ بالكفّ عن المعاصي

وفي اكتفائِهِ بذكرِ الحرّ دونَ البردِ تحذيرٌ وتنبيهٌ للمخاطبينَ من حرّ جهنّمَ من أن تصيبهُم، وأنّ عليهم الوقايةَ من استحقاقِها بالكفّ عن المعاصي والذّنوبِ[4].

دلالتا الصّيغةِ والصّوتِ في ﴿ٱلْحَرَّ﴾ و﴿ٱلْحَرُورُ﴾:

الحرورُ من صيغِ المبالغةِ والتّكثيرِ بمعنى السّمومِ الشّديدةِ الحرارةِ

ومن إنعامِهِ تعالى عليهم أن جعلَ لهم السّرابيلَ الّتي وصفَها بأنّها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، فيما قالَ في سورةٍ أخرى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾ [فاطر: 21]، وثمّةَ فرقٌ بالصّيغةِ ومعناها؛ فإنّ ﴿ٱلْحَرَّ﴾ اسمٌ ثلاثيّ زنةُ (فَعَلٌ)، ومعنى الثّلاثيّ معنى المجرّدِ وهو الحرُّ المعهودُ، أمّا الحرورُ فهو صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فَعول)، ومعناهُ دالٌّ غالبًا على السّمومِ على التّحقيقِ[5]، والفرقُ بينهُما من جهةِ الصّوتِ ظاهرٌ؛

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 248.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 446.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 206.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 50.

فالحرُّ لفظةٌ مقيّدةٌ بالإدغامِ، أمّا الحرورُ فمطلقةٌ دالةٌ على الاتّساعِ بمَدِّعاةِ الراءاتِ المتكرّرةِ وضعًا في الكلمةِ المتكرّرةِ صوتًا، فضلًا عنْ حرفِ الواوِ المديّةِ، وكلُّ ذلكَ يخلعُ على المعنى مبالغةً وزيادةً؛ لأنَّ السّياقَ في تشبيهِ الكافرِ والمؤمنِ ونفيِ تساويهما.

فائدةُ تكرارِ لفظتي: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ﴾:

تفصيلًا بينَ الوقايتين وقايةِ الحرّ والبردِ ووقايةِ البأسِ والحروبِ

وبعدَ ذكرِهِ السّرابيلَ الواقيةَ في قولِهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أعادَها في قولِهِ: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ فقد "جعلَ السّرابيلَ علَى قسمين: **أحدهُما**: ما يكونُ واقيًا منَ الحرِّ والبردِ، **والثّاني**: ما يُتّقى بهِ عنِ البأسِ والحروبِ، وذلكَ هوَ الجَوشَنُ (اسمُ الحديدِ الذي يُلبس من السَّلاح) وغيرهُ، وذلِكَ يدلُّ علَى أنَّ كلَّ واحدٍ منَ القسمينِ منَ السَّرابيلِ"[1]، فالتّكرارُ لأجلِ التّفصيلِ بينَ الوقايتينِ وبيانِ نوعيهما.

بلاغةُ الطّباقِ بينَ الظّلالِ والحرّ:

مقابلةً بين ما اختصّ بالمسكنِ وما اختصّ بالملبسِ

وطابقَ بينَ لفظتي الظّلالِ والحرّ في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ لما بينهما في الجملتينِ من المقابلةِ بينَ الظّلالِ المختصّةِ بالمسكنِ، والحرّ المختصّ بالملبسِ.

فائدةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿بَأْسَكُمْ﴾:

السّرابيلُ تقي بعضُكم بأسَ بعضِكم الآخر

وأضافَ البأسَ وهو الشّدّةُ في الحربِ إلى ضميرِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿بَأْسَكُمْ﴾ على معنى التّوزيعِ، أي: أنّ السّرابيلَ والدّروعَ تقي بعضُكم بأسَ بعضِكُم الآخرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65][2].

ولأنهم كانوا في الجاهليةِ هم الذين يثيرونها حروبًا شعواءَ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 240.

الحروبُ الشعواءُ غيرُ العادلة التي تدعو إليها العصبيةُ الجاهليةُ

تدعو إليها العصبيةُ الجاهليةُ، وتدفع الحمية غير المدركة العاقلة كحرب البَسوس، وعَبْس وذُبْيان، وغيرِهما مما كانوا يثيرونه من حروب، فلم تكن حروبًا عادلة؛ ولذا أضيفت إليهم[1].

دلالةُ المجازِ في قولهِ: ﴿بَأۡسَكُمۡۚ﴾:

وإضافةُ البأسِ إلى ضميرِ الخطابِ في قولهِ: ﴿بَأۡسَكُمۡۚ﴾ ليسَ على معنى الحقيقةِ، بل هو مجازٌ على حذفِ مضافٍ تقديرهُ يقيكُم أذى بأسكُم[2]؛ لأنّه هو المطلوبُ الوقايةُ منه لا البأسُ نفسهُ.

المطلوبُ هو الوقايةُ من البأسِ لا البأسُ نفسهُ

غرضُ تقديمِ الوقايةِ من الحرِّ على غيرها:

وقدّمَ قولهُ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ على قولهِ: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الوقايةَ من الحرِّ أكثرُ وأشيعُ منْ أذى الحربِ؛ فالأوّلُ حدثٌ يوميٌّ يحصلُ في كلِّ ساعةٍ من النّهارِ، ويحتاج إليه كلُّ واحدٍ منْ بني الإنسانِ، أمّا دروعُ الحربِ فخاصّةٌ بالمقاتلينَ؛ فقدّمَ ما الحاجة إليه أكثرُ وأمَسُّ، وأخّرَ الأقلّ[3].

قدّمَ ما يحتاجُ إليهِ أكثرُ وأخّرَ ما تقلُّ الحاجةُ إليهِ

دلالةُ الاقتصارِ على هذهِ النّعمِ:

وقدْ يردُ سؤالٌ أنْ كيفَ ذكرَ الحقُّ سبحانهُ من النِّعمِ: الجبالَ والظِّلالَ والسَّرابيلَ والقمصَ والأوبارَ والأصوافَ، معَ أنّ نعمَ اللهِ أكثرُ منْ هذهِ ولم يذكرْها، فكيفَ خصّصَ هذهِ النّعمَ بهم، وتركَ ما هوَ أكبرُ منها؟ والجوابُ عن ذلكَ: "أنّ العربَ كانوا أصحابَ أنعامٍ، وكانوا أهلَ جبالٍ، وكانت بلادهُم حارّةً؛ فذكرَ من النّعمِ ما يليقُ بحالهِم، وكانت هذهِ النّعمُ عندَهم فوقَ كلّ نعمةٍ؛ فخصّها بالذّكرِ لهذا المعنى"[4].

النّعمُ المذكورةُ ممّا يليقُ بحالهِم، وهي عندَهم فوقَ كلِّ نعمةٍ؛ فخصّها بالذّكرِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4238.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 441.
(3) سامي القدومي، التّفسير البياني، ص: 163.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 193.

توضيحُ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾:

والكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ اسمٌ بمعنى مثلَ دالٌّ على التّشبيهِ "أيْ: مثل ما جعلَ هذهِ الأشياءَ، وخلقَها لكم، وأنعمَ بها عليكُم"[1] أي: كما أتمَّ هذهِ النّعمَ الّتي تقدّمت يتمُّ ما تحتاجونَ إليهِ مثلَ ذلكَ الإنعامِ.

كما أتمَّ نعمتهُ عليكم فيما مضى يتمُّها عليكُم في المستقبلِ

وقد يكون قولك : "(مثل الشيء) كناية عن (نفس الشيء)، كما قيلَ في: مثلكَ لا يبخلُ، أيْ: أنتَ لا تبخلُ، وقيلَ : هذا أوفق لما بعدهُ"[2]؛ فقدْ تكونُ الكنايةُ أبلغَ من التَّصريحِ، أيْ: أنَّ الحقَّ سبحانهُ سينعمُ عليكم مستقبلًا مثلَ إنعامهِ فيما مضى منْ أمرِكم.

دلالةُ جملةِ ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ﴾:

وختمَ الآيةَ بجملةِ ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ من بابِ التّذييلِ لما ذكرَ من النّعمِ الّتي أنعمَها عليهم، والمُشارُ إليْهِ بـ (كذلك) هو ما في النِّعَمِ المَذْكُورَةِ مِنَ الإتْمامِ، أوْ إلى الإتْمامِ المَأْخُوذِ مِن (يُتِمَّ)[3]، فلا يدعُ شيئًا تحتاجونَ إليهِ في دينِكم ودنياكُم إلّا وهبهُ لكُم تامًّا، بما يحقّقُ كِفايتَكُم.

تذييلٌ لما ذُكرَ منَ نعمهِ فلا يدعُ شيئًا تحتاجونَ إليهِ إلّا وهبهُ لكُم

إيثارُ لفظِ الإتمامِ، وصيغةِ المضارعِ:

وآثرَ لفظَ الإتمامِ في قولهِ تعالى: ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾؛ لأنّهُ لمّا أنعمَ عليهم فيما مضى بنعمٍ كثيرةٍ؛ فإنّهُ يتبقّى نعمٌ أخرى كيْ يحصلَ المرادُ؛ فتكونُ هذهِ متمِّمةً لتلكَ، ووقتُ حصولِها في المستقبلِ[4]؛ لذلكَ أوردَ الفعلَ بصيغةِ المضارعِ الدّالّ على الاستقبالِ والاستمرارِ.

نِعَمُ اللهِ تتجددُ وتتوالى وهو سيتمُّها على عباده في المستقبلِ

الإسنادُ في الفعلِ ﴿يُتِمُّ﴾ وعدمُ ذِكرِه:

في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، عاد الضمير في

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 13/ 162.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 11/ 352.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 578.

كون المسند إليه معينًا معلومًا، وتنبيه المخاطب إلى ما أسند إليه سابقًا

الفعل ﴿يُتِمُّ﴾ على اسم الجلالة المذكور في صدر الآية الكريمة، ولم يصرّح باسم الجلالة؛ لأنَّ تقدير الضمير أبلغ وأخصر، وأقعد في المعنى وأدخل في الفصاحة؛ إذ الفاعل معروف من خلال نِعَمِه الظاهرة وآلائه الجليَّة التي لا ينكرها إلا جاحد، فلهذا كان تقديره أولى، ولأنّ التلميح أبلغ من التصريح؛ حتّى ينتبه المخاطب إلى تلك النّعم السّابقة، فيعاود تدبّرها مرّة بعد مرّة.

سرّ الإفرادِ والإضافة في ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾:

الدلالةُ على خالصِ النّعمةِ وكمالِ الواهبِ المستوجبِ شكرَ الموهوبِ

وفي قولِه تعالى: ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾ أوردَ لفظةَ النّعمةِ على صيغةِ الإفرادِ؛ لأنَّ المرادَ بها المصدرُ[1]، وفائدةُ التّعبيرِ بالمصدرِ يدلُّ على خالصِ الشّيءِ وتمامِه ومبالغتِه، فكأنّهُ أرادَ كمالَ نعمتِه، ثمَّ أضافَها إلى الضّميرِ العائدِ عليهِ سبحانهُ؛ لبيانِ الكمالِ من الواهبِ المستوجبِ شكرَ الموهوبِ.

لإظهارِ هوانِها بالنّسبةِ إلى جنابِ الكبرياءِ

وفي إفرادِ النّعمةِ فائدةٌ، وهيَ أنْ يُظهرَ الحقُّ سبحانهُ أنَّ ذلكَ بالنسبةِ إلى جنابِ كبريائِه وعظمتِه شيءٌ قليلٌ يسيرٌ[2].

لعمومِ المفردِ المضافِ ولأنّها واحدةٌ باعتبارِ مَصدَرِها

وأفردَ النّعمةَ في الجملةِ وهيَ متعددةٌ كتسخيرِ البيوتِ للسّكنى، والأشجارِ والجبالِ للاستظلالِ، والسّرابيلِ وقايةً ونحوها؛ "لأنَّ المفردَ المضافَ يعمُّ، ولأنّها واحدةٌ باعتبارِ مصدرِها، وهوَ اللّهُ ﷻ"[3].

فائدة الجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

الاستغلاءُ المَجازِيُّ؛ فهو إتمامُ إسباغٍ وتغطيةٍ وسترٍ وشمول

تعدّى الفعل (أتمّ) في القرآن الكريم بـ (اللّام) و(إلى) و(الباء) و(على)[4]، كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: 8]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: 187]، وقوله: ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 222.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 441.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4238.
(4) محمد داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/ 475، 476.

لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: 142]، وتعدّى بـ (على) في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، وحرف الجرّ هنا يفيد الاسْتِعْلاءَ المَجازِيَّ، أيْ إتمام إسباغٍ وتغطيةٍ وسترٍ وشمول؛ لِأنَّ سِياقَ الكَلامِ خِطابٌ عامّ، أي ذلك الإتمامَ البالغَ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي إرادةَ أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النِّعم الظّاهرةِ والباطنةِ والأنفُسيّةِ والآفاقيّة، فتعرِفوا حقَّ مُنعِمها؛ فتؤمنوا به وحدَه، وتذروا ما كنتم به تشركون[1].

دلالةُ حرفِ (لعلّ):

التّرجّي في حيّزِ البشرِ المخاطبينَ فحالهُم ممّا يرجى منها إسلامهُم

وفي قولهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ السّلامةُ هنا هي الإسلام والاستسلام والانقياد؛ فتكونُ (لعلّ) دالّةً على التّرجّي والتَّوقُّع، ولكنْ في حيّزِ المخاطبينَ من البشرِ، فلو نظرَ أحدٌ حالهَم لترجّى أنْ يُسلموا[2].

رغبةً في أنْ تُسلِموا فتتبعوا الإسلامَ فيؤولُ أمرُكُم إلى شكرِ نعمِهِ تعالى

وقد استُعملت (لعلّ) في قولهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ في معنى الرَّغبةِ، أي: فقد أنعمَ عليكم بما أنعمَ وأتمّ نعمتهُ رغبةً في أن تتّبعوا دينَ الإسلامِ فيكونُ مآلكُم أن تشكروا نِعمَه ﷺ[3].

العدولُ في ﴿تُسْلِمُونَ﴾:

مُنِحوا من النّعمِ الظّاهرةِ والباطنةِ كي يتفكّروا وينظروا فينقادوا للمنعِمِ

وعدلَ عن لفظِ (تشكرون) إلى لفظِ ﴿تُسْلِمُونَ﴾؛ لأنّه ها هنا بمعنى الاستسلامِ والانقيادِ، ووضعَ موضعَ العلّةِ والسّببِ، أي: أنّ الحقّ سبحانهُ منحهُم من النّعمِ الظّاهرةِ والباطنةِ كي ينظروا ويتفكروا ويعرفوا المنعمَ؛ فينقادوا ويخضعوا له[4].

سرُّ استعمالِ المضارعِ في خبرِ (لعلّ):

وجاءَ بخبرِ لعلّ ﴿تُسْلِمُونَ﴾ على صيغةِ المضارعِ الدّالِّ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 133.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 413.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 241.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 175.

رجاءَ إسلامِ كفّارِ مكّةَ مستقبلًا وأن يَثبُتَ المسلمونَ على إسلامهم

الاستقبالِ والتّجدّدِ؛ لأنّهُ خطابٌ لأهلِ مكّةَ، وكانَ أكثرهُم كفّارًا؛ فيكونُ ﴿تُسْلِمُونَ﴾ دالًّا على الاستقبالِ رجاءَ أنْ يُسلموا، وإنْ كانَ الخطابُ للمسلمينَ فهوَ على معنى أنْ يدوموا على إسلامِهم، وأنْ يقوموا بحقّهِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظّلّ والفيء:

الظّلالُ ما يقي من الحرّ وقتَ الضُّحى والفيءُ عامّ وهو بمعنى الرّجوعِ

وعبّرَ عمّا يحتمي به الإنسانُ بقولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾؛ فذكرَ الظّلَّ ولم يذكرِ الفيءَ مرادفهُ؛ فإنَّ الظِّلَّ هو الطّلوعُ إلى الزّوالِ، والفيءُ ما كانَ بعدَهُ إلى الغروبِ، فالظّلُّ ما كانَ في وقتِ الضّحى؛ لأنّهُ متعلّقٌ بالشّمسِ؛ ولذلكَ قيلَ إنَّ أهلَ الجنّةِ في ظلٍّ؛ فالفيءُ عامّ والظّلّ خاصّ[2]، أو الظِّلُّ أعمُّ من الفيء، فإنه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلِّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشمس[3]، فذكرَ في الآيةِ هنا ما يقي من الحرّ وقتَ الضّحى[4]، فذكرُ الظّلالِ هنا أليقُ من ذكرِ الفيءِ.

الأكنان والبيوت:

الأكنانُ ما يستترُ الانسانَ من غارٍ أو نفقٍ، والبيوتُ ما ينشئها للسّكنِ

وذكرَ الأكنانَ في قولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، مفردها كِنٌّ "وهوَ الحافظُ منَ المطرِ والرّيحِ وغيرِ ذلكَ، وهيَ هنا الغيرانُ في الجبالِ، جعلها اللّهُ عدّةً للخلقِ يأوونَ إليها ويتحصّنون بها، ويعتزلون عنِ الخلقِ فيها"[5]، فالأصلُ اللّغوي هو الاستتارُ في جوفِ الشّيءِ كالغيرانِ الّتي تسترُ كلّ ما فيها[6]، أمّا البيوتُ فقد

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 576.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 341.
(3) الراغب، المفردات: (ظلل).
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 174.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 159.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/ 1931.

تبيّنَ أمرُها فيما سلفَ، وهي الأماكنُ الّتي يستقرُّ فيها الإنسانُ، وتكونُ على هيئةٍ مخصوصةٍ من الجدرانِ والسّقوفِ الّتي ينشئها الإنسانُ؛ لأجلِ أن يسكنَ فيها، فثمّةَ فرقٌ بينَ ما يصنعهُ الإنسانُ، وبينَ ما يجدهُ من صنعِ اللّهِ في الطّبيعةِ، وكلاهما ممّا امتنّ بهِ الحقّ سبحانهُ على بني البشرِ.

السِّربال والقميص:

وفي قولهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ ذكرَ السّرابيلَ، مفردهُ سِرْبالٌ، وهوَ القميصُ المصنوعُ من القطنِ والكتانِ ونحوهِ الّذي يقيهم من الحرِّ والبردِ، ثمَّ أتْبَعَهُ بالسَّرابيلِ وهيَ الدّروعُ[1]، الّتي تَقيهمُ البأسَ والحربَ، والتّعبيرُ بالسّرابيلِ أكثرُ دقّةً من التّعبيرِ بالقمصانِ؛ لأنَّ السّرابيلَ دالةٌ على العمومِ؛ فتطلقُ على ما صنعَ من القطنِ وغيرهِ، ممّا يلبسهُ الإنسانُ لاتّقاءِ الحرِّ والبردِ، وتطلقُ على ما يلبسهُ المقاتلُ منْ دروعِ الحديدِ[2]؛ لاتّقاءِ أذى الحربِ من السّيوفِ والرّماحِ وغيرِها، فيما لا تطلقُ القمصانُ على الدّروعِ فهيَ أخصُّ.

السّرابيلُ دالةٌ على العمومِ فتطلقُ على القمصانِ وعلى الدّروعِ وسياقُ الآيةِ في الاثنين

الوقاية والمنع:

الوِقايَةُ: حفظُ الشيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه، وامتنان اللّه على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 11]، ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾ [الدخان: 56]، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٣٤﴾ [الرعد: 34]، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرعد: 37]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: 6]، والتَّقْوَى جعل النّفس في وِقايَةٍ مما يخاف[3]، والتوقي: جعل النفس في وقايةٍ مما يخاف[4].

الوقايةُ دفعُ شيءٍ بشيءٍ حذرًا من المكروهِ، والمنعُ حجزٌ بين شيئين

(1) كراع النمل، المنتخب من غريب كلام العرب، ص: 502.
(2) الشربيني، السراج المنير: 2/ 254.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: 881.
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وقى) 4/ 334.

والمنع – في الأصل – الحجز بين شيئين، وهو أيضًا ضدُّ العطيَّة؛ لأنَّ الحاجز يحجز بين المعطي والعطيّة[1].

ويقال في الحماية، ومنه: مكان منيع، وفلان ذو مَنَعَة، أي: عزيز ممتنع على من يرومه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 141][2]، والمنع يقتضي القسر، ويكون من فاعل آخر هو المانع، وأمّا عدُّ الأمور المعنوية مانعًا، فاصطلاح أو عرف طارئٌ على أصل اللغة[3].

فالوقاية تتعلّق بالإنسان في بدنه ومعاشه وممتلكاته وغير ذلك من الأمور المحسوسة، كما أنّها قد تكون من الله للإنسان أو من الإنسان لغيره[4].

والمنع هو الحجز بين شيئين، وهو أن تَحولَ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشَّيْءِ الَّذِي يُرِيدُهُ، وهوَ خلافُ الإعْطاءِ، ويُقالُ: هوَ تحجيرُ الشَّيْءِ[5].

التّمام والكمال:

التَّمامُ يمكنُ أن يزادَ عليه، أمّا الكمالُ فهو الحالةُ العليا الّتي لا يزادُ عليها

ولَمّا أرادَ بيانَ منّتِهِ تعالى قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾؛ فاختارَ فعلَ التّمامِ مؤْثِرًا إياهُ على قرينهِ فعلِ الكمالِ، وإنْ كانا يتّفقانِ على عمومِ المعنى، وهوَ إزالةُ النّقصِ، إلّا أنَّ ثمّةَ فرقًا بينهُما، فالكمالُ هوَ الحالةُ المثلى، وهوَ متعلّقٌ باجتماعِ أبعاضِ الموصوفِ بهِ، أمّا التّمامُ فهوَ اسمٌ للجزءِ الّذي يتمُّ بهِ الموصوفُ[6]، فهو ضدّ النّقصِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: 3]؛ فإنَّ النّعمةَ يمكنُ أنْ يزادَ عليها، أمّا الكمالُ فهوَ الحالةُ العليا

(1) السمين الحلبي، عمدةالحفّاظ: (وقى) 4/ 114.
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: 779.
(3) الشهاب الخفاجي، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي عَلَى تفْسيرِ البَيضاوي: 6/ 42.
(4) عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن حميد، نضرة النّعيم: 8/ 3676.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (منع).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 458.

الّتي لا يزادُ عليها؛ فالدّينُ لا يزادُ عليهِ لأنّه نزلَ كاملًا فالحقّ ﷻ "ما أمرهُم بعدَ ذلكَ بشيءٍ منَ الشَّرائعِ"[1]، ومنْ خلالِ استقراءِ الآياتِ الّتي أوردَ فيها النّعمةَ؛ فإنّهُ لم يستعملْ معهُ إلّا فعلَ التّمامِ؛ لجوازِ زيادةِ النّعمةِ منهُ تعالى، فذكرَ في هذهِ الآيةِ الكثيرَ من النّعمِ منْ لدن جعلهِ البيوتَ سكنًا حتّى جعلهِ لهمُ السّرابيلَ الواقيةَ، فإن آمنوا واتّقوا فنِعمُ اللّهِ متوافرةٌ كثيرةٌ قدْ تزيدُ ولا تنقصُ، فالتّمامُ معَ النّعمةِ أنسبُ وأليقُ هنا وفي جميعِ القرآنِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 326.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»